يومية

22

N°7

ضيف اليوم

محمد نور الدين أفاية

كاتب وناقد مغربي

رئيس لجنة النقد

الفيلم المغربي دائما ما يعاني من خلل أو نقص ما

افتتاحية

23

تكريم استثنائي للممثلة المغربية أمال عيوش في مسرح سينما إسماعيل والممثل المصري أحمد رزق بمفاجأة حفل اختتام الدورة 22 من المهرجان

ألبوم

موعدنا اليوم

ضيف اليوم

محمد نور الدين أفاية: الفيلم المغربي دائما ما يعاني من خلل أو نقص ما

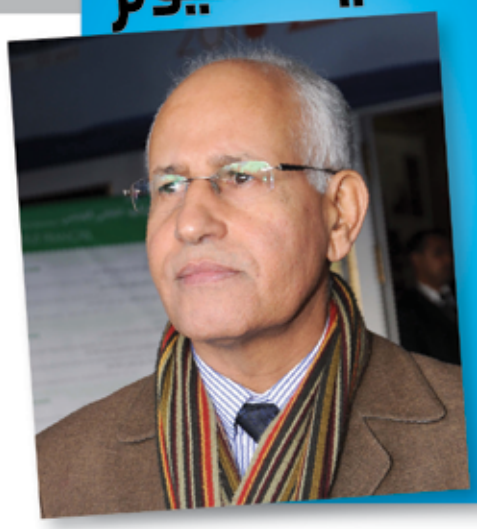

. في كتابك الأخير «في النقد الفلسفي المعاصر»، تتحدث عما تسميه «عالم الاستراتيجيات المتعددة، للسيطرة على العقول والأرواح، بسبب الاجتياح اللامحدود للسمعي البصري، ومظاهر العبودية الطوعية، التي تقدمها تقنيات التواصل الجديدة». كيف السبيل إلى الخروج من هذه العبودية، ربما الاضطرارية، وليست الطوعية أو المختارة؟

.. كل المجتمعات تضع آليات ضبط ورقابة وإدماج. والمجتمع الرأسمالي الاستهلاكي أنتج وينتج آليات مبتكرة لتطويع الأذواق والإرادات والاختيارات. وهو يقوم بذلك بأشكال متنوعة الإغراء والجاذبية، إلى درجة أن المرء يفقد إزاءها كل عناصر الشك والتبرم، أو المقاومة، أو القدرة على فهم خلفيات وأهداف هذه الآليات، وكذا القدرة على نقدها والكشف عما تختزنه من أسباب الضياع الذاتي والاغتراب في الوجود.

هذا الأمر ليس جديدا، في تاريخ الفكر، منذ القرن التاسع عشر وإلى اليوم. ولكننا نحن بإزاء ترسانة لا تتوقف على التجدد في انتزاع الإنسان من ذاتيته، والزج به في متاهات استهلاكية وإدراكية، أو متاهات استهلاكية تستنفر لديه قوى الإدراك أكثر مما تحرك فيه ممكنات التعقل والتنبيه للتداعيات السلبية عليه لهذه الوسائل، ومنها العدة السمعية البصرية.

ولا يمكن اعتبار مقومات هذه العدة كلها سلبية أو سيئة أو مضرة. ولكن المراقب لتطور أدواتها وطرق اشتغالها سيلاحظ بأنها أصبحت اجتياحية، وتحاصر قدرات المرء على خلق المسافة إزاء ما يرى ويسمع وما يحس، من أجل تعبئة مقومات الوعي الذاتي تجاهها.

. في «الحداثة والتواصل»، توقفت، مع هابرماس، عند مأزق العقلانية، بينما يتجلى البديل في الأفق الجمالي، وفي اليوتوبيا، بما هي حلم يفسح آفاقا جديدة أمامنا. هل السينما، وهي صناعة للأحلام، ضرب من هذا الأفق الجمالي المنشود؟

.. الحداثة منظومة متعددة المرجعيات والمقومات والغايات. وهي بقدر ما تدعو إلى العقلانية والحرية، فإنها تختزن في ذاتها أسباب التأزم. ومن بين أهم ما اقترحته البشرية هو قدرة العقل على محاسبة ذاته، وإبراز أهمية النقد في تحقيق الوجود، واجتراح علاقات إنسانية تمتلك مقومات الثقة والاعتراف.

ولذلك، فالحداثة لا تنزعج من نقدها، وإنما هي تطلب هذا النقد وترحب به. ومنذ فلاسفة ما يسمى بالشك والتوجس، مع ماركس وفرويد ونيتشه، والعقل العصري يحاسب ذاته، بل ويعتبر بأن هنالك ما يسميه هوركهايمر «اختفاء العقل». بينما سيطرت على العالم العقلانية الأداتية النفعية على حساب العقلانية التواصلية التي تعترف للإنسان بذاتيته وحريته وكرامته. وإزاء هذا النوع من الانسدادات التي تنتجها العقلانية الأداتية، والمجتمع الاستهلاكي، باعتباره نموذجا بليغا لهذه العقلانية، اعتبر المفكرون والفلاسفة، منذ مؤسسي النظرية النقدية، أنه إزاء هذه الانسدادات، لا يمتلك الكائن سوى الأفق الجمالي، كوسيلة للخلاص من الهيمنة الساحقة للنزعة الاستهلاكية، وفسح مجالات رحبة لتحقيق الذات، ومقاومة العبودية الطوعية والاستلاب. وتمثل السينما، في اعتقادي، ليس فقط مجرد أفق للتحرر من النزعة الاستهلاكية، وإنما هي أيضا حقل إبداعي متعدد الإمكانات والمهام، بما فيها توسيع دوائر الحرية والتعبير عن الذات، وعن مختلف القضايا التي تراها الذات مناسبة لإظهارها بطرق مبتكرة، من خلال العدة السينمائية.

. الفيلم نسق من الأصوات والصور، يشكل، في نظرك، مناسبة للتساؤل والحوار. كيف تنظر إلى إيقاع الحوار والتساؤل بصدد السينما في المغرب؟

.. السينما حقل إبداعي عصري، وقد دخل إلى وجودنا كما دخلت السيارة والآلات العصرية. فلا إسهام لنا في صنعه. ومشكلتنا مع السينما هي نفس المشكلة التي تطرح علينا في تعاملنا مع مختلف تعبيرات الحداثة. إذ غالبا ما نأخذ بجوانبها التقنية، من دون أن نستنبت الشروط الفكرية والمعرفية التي كانت وراء إنتاجها.

> **السينما حقل إبداعي عصري، وقد دخل إلى وجودنا كما دخلت السيارة والآلات العصرية. فلا إسهام لنا في صنعه**

والظاهر أن المخرجين المغاربة تعاملوا مع السينما كعدة تقنية، من منطلق الرغبة في التعبير عن القضايا التي تشغلهم، وفي تأطير الجسد المغربي في الزمان والمكان. ولكن هذه العدة نفسها كثيرا ما تخونهم في الارتقاء بممكناتها إلى جعلها أداة للتفكير والإبداع. فالمشكلة، أولا وأخيرا، هي مشكلة وعي برهانات السينما والحداثة في سيرورة المجتمع والثقافة في المغرب.

. انتهيت في «الخطاب السينمائي» إلى أن قضية السينما المغربية لا تتلخص فقط في قضايا الإنتاج والتوزيع، وإنما تستدعي موقفا ثقافيا وحساسية جمالية. وحتى اليوم، فلا هذه ولا تلك؟

.. صحيح أن المخرجين المغاربة كانوا يعانون من مشكلة إنتاج، نظرا لغياب الشروط المادية المناسبة. ولكننا نجد، في بلدان أخرى، تعاني من نفس المشاكل التي نعاني منها، مخرجين أبدعوا أعمالا سينمائية محترمة، وتحفا أصبحت مرجعية، بالرغم من قلة الموارد.

أما الآن، فالعاملون في السينما يتوفرون على نسبة، لا نقول مهمة في إنتاج الأعمال السينمائية، ولكنها تساعد على توفير الشروط الضرورية أو المناسبة لإنتاج وإبداع الأفلام أفضل مما كان عليه الأمر في السبعينيات والثمانينيات. والحال أننا بتنا نشاهد كما كبيرا من الأفلام، ونادرا ما نعثر على مستويات نوعية من التفكير والتعبير المتمكن، فضلا عن أن الإنسان يشعر بأن الفيلم المغربي دائما يعاني من خلل ما أو نقص ما. حتى داخل هذه الأعمال التي نعتبرها بأنها نوعية.

. كنت رئيسا للمهرجان الوطني للفيلم بطنجة، في دورته الأخيرة. واليوم، رئيسا للجنة النقد «لجنة مصطفى المسناوي». كيف تابعت المنجز الفيلمي للأجيال الجديدة في السينما المغربية؟

. . تجربة المشاهدة في المهرجان الوطني للفيلم مفيدة للغاية، لأنك تكون أمام عينة مكثفة من التجارب والحساسيات التي يعبر عنها السينمائيون المغاربة، من الجيل القديم والجديد، معا.

والظاهر أن الأعمال التي عرضت قد شكل البعض منها مفاجأة لا بأس بإيجابيتها. ويبقى هنالك تفاوت كبير في التصورات وفي المعالجات، وفي أنماط إدارة العملية السينمائية. لكن ما أثار الانتباه هو التمكن التقني الذي برهن عليه الجيل الجديد في صناعة الفيلم، والمهارات التي كان البعض منها مثيرا للإعجاب، سواء على مستوى الإخراج وإدارة الممثلين. وأيضا على صعيد التصوير والتأليف والموسيقى والمونتاج. فمهما عانت بعض الأعمال من نقص في البناء الروائي، وفي الأداء المحكم للحكي والتعبير، فإنه لا يمكن للمرء إلا أن ينتبه إلى هذه الكفاءات التي بدأت تظهر، والتي يبدو أنها تحتاج إلى بنية فكرية حاضنة ومشجعة على المغامرة الإبداعية.

فيلم اليوم: عندما يزهر الربيع السابع عشر، أو «تعلم الحياة»

في سن الثانية والسبعين، أخرج أندري تيشني فيلمه الروائي الطويل الواحد والعشرين، «عندما يزهر الربيع السابع عشر» (2016)، دون أن يفقد ولو قليلا من طراوة النظرة والحساسية المرهفة المتكتمة. اختير هذا الفيلم في المسابقة الرسمية لنيل جائزة الدب الذهبي ببرلين. وهو شريط سينمائي يتداخل فيه البعدان الشخصي والإنساني العام، حول مواضيع المراهقة والرغبة والحب والصداقة. تدور الحكاية حول تلميذين بالسلك الثانوي، هما توم وداميان، مختلفان كل الاختلاف في كل شيء. يعيش توم في البادية بين أحضان الجبال والطبيعة، بينما يسكن داميان في المدينة، مع أمه الطبيبة وأبيه ريان الطائرة في الجيش، الذي نادرا ما يزورهما. تتميز علاقة هذين المراهقين بالنفور المتبادل، وبالتحدي والشجار المتواصل. غير أن أم توم ستصاب بمرض، مما سيضطر توم إلى الانتقال للعيش مؤقتا بمنزل داميان. هكذا ستتطور علاقتهما وتتخذ منحى مغايرا، لتبدأ لعبة الإخراج، من أجل اكتشاف تضاريس علاقة متنامية، حيث توظف الكاميرا للنفاذ إلى عالم المراهقة بكل اضطراباتها، لتصور بفنية عالية الشجارات المحتدمة بين المراهقين، والتحاماتهما البدنية، العنيفة والملتبسة، كأنها تسعى إلى التكفير عن سوء التفاهم السابق. ويفلح المخرج، بأسلوب بسيط ممتنع، في التقاط هذا الجانب الجسدي البحت ضمن علاقة الصراع بين توماس وداميان اللذين يضطران إلى التوسل بالضربات، قبل الانتقال إلى الكلمات، ثم إلى تصرفات وحركات تعبر عن حب متبادل، تقدمها الكاميرا بحساسية عفوية دون تكلف.

هكذا، يعود تيشني إلى تناول موضوع المراهقة بعد فيلمه «قصب بري» سنة 1994. ولكن المخرج يؤكد هذه المرة، متحدثا عن فيلم «عندما يزهر الربيع السابع عشر»، كفيلم يثير موضوعا حساسا، ويغوص في العالم الحميمي للشخصيات: «سعيت أيضا إلى جعله أيضا فيلم حركة ومغامرات، حيث يتخلق طوال الأحداث درس مفتوح لتعلم الحياة».